موقعة ناڤارين البحرية

٢٩ ربيع اول سنة ١٢٤٣ هـ ٢٠ اكتوبر ١٨٢٧م

للدكتور علي مظهر

— ٣ —

يجمل بنا ان لا نغفل ذكر محرم بك امير البحر للاسطول المصري وقائد الاسطول في تلك الاثناء . فنقول أنه من « فوكه » أصلاً بلد محمد علي وكثير من الاسر المصرية اليوم . واتخذ مصر وطناً ثانياً لهُ . فاستخدمه محمد علي في كثير من مهام الحكومة.

وزوَّجه بابنته تقيدم هانم لحسن سيرته وحميد خصاله . ولكن الوفاة عاجلتها فماتت بعد زمن قصير . وكان محمد علي قد عينه محافظاً على الاسكندرية فأحسن ادارتها وعهد اليه برآسة ادارة البحرية الاولى . وجعله قائداً للاسطول في حرب اليونان من سنة ١٢٣٦ الى ١٢٤٣ . ولما عاد ابرهيم باشا الى مصر بقي في منصبه محافظاً للاسكندرية الى يوم وفاته في ١٢ محرم سنة ١٢٦٤ هـ . فأسف عليه الناس وكان محبًّا لفعل الخير. وأغدق الكثير من جواريه ومماليكه وأغدق عليهم الاحسانات الجزيلة وشيد لهم المنازل العديدة لسكناهم (سرهنك باشا ج ٢ ص ٢٤١) . ولعلهُ هو وأمثاله هم من الذين حببوا للاروام سكنى مصر بعد تخييرهم في الرجوع الى بلادهم كما نصَّ على ذلك اتفاق الحرب اليونانية الذي ذكرناهُ آنفاً

ونرى أن نذكر ما كتبه المرحوم الشيخ يوسف التونسي في كتابه صفوة الاعتبار اذ يقول :

انه في أيام جورج الرابع ملك انجلترا وقع الغدر في أسطول الدولة العثمانية من أسطول انجلترا المترئس على أساطيل الدول في تظاهرهم على طلب تسليم الدولة العثمانية لليونان بالاستقلال. فمن غير اعلان الحرب لها تخللت الاساطيل من بين اسطولها المركب من سفنها وسفن مصر وطرابلس وتونس والجزائر وهم على اطمئنان السلم والأمن وأطلقت عليهم النيران دفعةً واحدة بحيث لم يبق منهم باقية غدر وشناعة لا تمحى وسمة لا تزول على خصوص الانجليز لانهم هم الذين يبدهم امرة

جميع الاساطيل الدولية . وعندما سمعت الدولة الانجليزية (مجلس النواب) بفظاعة الواقعة هاجوا وماجوا وطلبوا محاكمة رئيس الاساطيل . وحكم عليه مجلس حربي بالقتل مع دفاع وزير البحر عنه بكل ما أمكن من الاعتذار وتلفيق دعوى بأن احدى السفن العثمانية اطلقت النار عليهم فلم يجد كل ذلك شيئاً . وعند ما تحقق الرئيس الحكم عليه بالقتل أسرَّ الى وزير البحر بأن التذكرة التي بخطه في الامر باحراق الاسطول العثماني قد نسي ان يحرقها معه مثل ما امر . وحينئذ تحوَّل المجلس الى جلسة سرية ثم اطلق الرئيس . اه

ويذكر بعض المؤرخين الاوربيين بان التعليمات التي اعطيت للسير كودرنجتون كانت تحظر عليه اي عمل عدائي مع العثمانيين ونحن لا نرى صدق تلك الرواية فان نية تدمير الاساطيل المصرية والعثمانية كانت متوافرة . ولا عبرة بما جاهر به المنصفون من اهل اوربا من فظاعة هذا الامر ومخالفته للقوانين المتبعة وانهُ خيانة وغدر . ولا عبرة كذلك بما نقله بعض الكتَّاب والمؤرخين من اوربا من ان التعليمات التي اعطيت للسير كودرنجتون كانت تحظر عليه اي عمل عدائي . فانهُ من غير المعقول أن يأتي ذلك القائد البحري ما يخالف اوامر حكومته بل كان هناك اتفاق سابق بين الحكومات الثلاث فرنسا والروسيا وانجلترا على تلك المذبحة كما وصفها امبراطور النمسا في ذلك الحين وما قاله جورج الرابع ملك انجلترة نصه عنها بانها حادثة مشئومة . ومن ذر الرماد في العيون تلك الرواية التمثيلية التي قام بها الاحرار في انجلترا وتثلر ضد امير البحر كودرنجتون وانهم اعتبروا عمله وحشيًّا لا شرف فيه ولا فخار . فاضطرت الحكومة الانجليزية أن تعلن عدم موافقتها على عمل كودرنجتون . ولكنها لم تعلن عدم موافقتها على هذا العمل الفظيع الوحشي الا بعد حدوثه . وهي رواية هزلية لا يصدقها الا سذج العقول . ولقد ذكر مصطفى باشا كامل رحمهُ الله في كتابه المسألة الشرقية وأشار الى تلك المذبحة فيما نقله مسيو (انفريد ليتز) في مؤلفه عن استقلال اليونان من المستندات الرسمية التي لا تزال محفوظة في وزارة البحرية الفرنسية . فمنها تقين ان حكومات فرنسا وروسيا وانجلترا كانت متفقة من قبل على كل ما اتاهُ قواد اساطيلها . وقد قال امير البحر كودرنجتون لما علم بعدم موافقة حكومته على مذبحة ناڤارين : — « ان الوزراء يضحون بي للاحتفاظ بمناصبهم »

ويقدر المؤرخون عدد الذين ماتوا من بحارة مصر في هذه المذبحة الشهيرة المعروفة بموقعة ناڤارين البحرية بستة آلاف بحري استشهدوا في اثناء مفاجأة اساطيل الدول المتحدة لاسطول مصر واسطول تركيا وسط الضباب بدون سابق انذار بينما كانت الهدنة معقودة بين الطرفين

وفي عدد جريدة الاخبار الصادر بالقاهرة في مساء الخميس ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٣٤٦ — ٢٠ اكتوبر ١٩٢٧ وهي التي كان يرأس تحريرها امين بك الرافعي رحمهُ الله مقالة انتاجية بعنوان : (معركة

ناڤارين البحرية بعد مرور مائة عام) وفي هذه المقالة كلام طويل على تلك المعركة . ونحن ننقل عنها باختصار ما اشارت اليه عن كنوز ناڤارين وهل تستخرج البواخر الغاطسة مما تقله عن جريدة الطان الفرنسية في احد اعدادها التي اصدرتها قبل تلك الذكرى المئوية واحتفال حكومة ايمشذ قالت الطان : « . . . . والفضل في ذلك (استخراج البواخر الغاطسة) لما ابدى المهندس الشاب م . ا . كريتوى الفرنسي من همة واقدام لاستخراج المدرعات التركية والمصرية من اعماق خليج بيلوس المغرقة منذ مائة عام بما رمتها به اساطيل فرنسا وانجلترا وروسيا معاً من قنابلها المردية . ومما يعجب له ان قد اتفق ان الشركة صاحبة الامتياز القائمة بهذا الاستخراج هي برؤوس اموالها ووسائلها انجليزية وفرنسية وروسية ويونانية . والبحث عن كنوز ناڤارين كالبحث عن كنوز الارمادا مسألة طال عليها الزمن وتقادم بها العهد . فلطالما تألفت شركات وجعلت تختلب عقول من عساهم يساهمون فيها بما تعرض على مخيلاتهم من غنائم جسام تخرجها لهم من اغوار اللجج ولكن طرأت طوارىء وحالت امور دون تحقيق هذه الاماني . أترى تطوي هذه المياه في اجوافها كنوزاً من الاموال ام هي منها جوفاء خالية ؟ ذلك على بعد شهور أو بعد سنين . فان العمل شاق عسير ويستغرق الزمن الكثير . ولكن آن ان يكشف المطوي ويعلم . ثم قال بعد كلام لا نرى له محلاً لذكره هنا :

« اذ يجوز لنا افتراض ان الاتراك والمصريين اذ بوغتوا وحاق بهم ما كانوا يستبعدون لم يجدوا من الوقت ما يمكنهم من نقل ما بين ايديهم من كنوز مما غنموه او جاءهم من سبل اخرى ؟ (ايظن الكاتب ان بلاد اليونان الفقيرة ولاسيما في ذلك الوقت كانت توجد كنوز ! ؟ هذا والله غريب في التفكير أو نقص في المعرفة) . فان سفينة قائد الاسطول التركي طاهر باشا هوت كما هوت معها في بطون الماء ثلاث عشرة دراعة وخمس سفن وسفن القتال وعشرون اخرى من سفائن الاسطول وما بقي في آخر المعركة من الخمس والسبعين سفينة التي يتألف منها الاسطول التركي سوى خمس عشرة سفينة صغيرة وبارجة واحدة . وتعادلت كفة الخسائر في الاسطول المصري مع مثلها في الاسطول التركي

***

ألعل البارجة الناجية قد حملت في مطاويها كنوز الحرب الى مصر ؟ ذلك ممكن . ولكنه يكاد يكون غير معقول . ذلك اننا نشك في ان الغوص في هول هذه الساعات تملك من رباطة الجأش ومن الوسائل ما يمكنها من حمل ما تشتهي الانفس حمله من هذه النفائس والكنوز

والذي نريد ان نعرفه هل كانت سفن المصريين والاتراك تحمل هذه الكنوز حقاً . اما

المستر برس كروس ستديج فرأيه في مقال لهُ نشرته مجلة (كنتمبوردري ريفيو) هو انهُ لم يكن فيها من ذلك شيء . اما الرواية الشائعة المأثورة فتربى على النقيض من ذلك ان كنوز ابراهيم في القتال جاوزت المليار مما يعدل عملتنا الحاضرة (يقصد مليار فرنك فرنسي)

ولقد كثر استشهاد المستشهدين في اقامة حجتهم على صحة تلك الكنوز بمذكرات احد ضباط السفينة سيرين المدعو راؤول دي رامون ونشرتها (الاسيتا) في ١٦ اغسطس سنة ١٩٠٣ فقد كان هذا الضابط من المقاتلين في هذه المعركة . وبعث بعد ذلك بست وعشرين سنة الى الاستانة (استنبول) في مهمة وكانت في صحبته امرأته وهي من بنات اليونان كان قد أنقذها من مذابح الاتراك . ولقد قامت بينها وبين عديلة هانم ارملة امير البحر محرم بك المصري صلاة ود . فجاء احمد بن عديلة هانم احد جنود حرس السلطان الخاص ذات مساء الى الضابط الفرنسي واطلعه على بضعة اسانيد . كتب احدها قبل معركة ناڤارين بثلاثة ايام وفيه ذكر ما ملك يوسف من اموال امراء البحر في الاسطول التركي وقد اصاب محرم عشرين كيساً وعشرة آلاف من الدوقات الذهبية (ما يقرب من خمسة آلاف جنيه) فبلغ بذلك ما تملك يمينه خمسين كيساً وثلاثين الفاً من الذهب

وفي مستند آخر يرجع الى سليمان بك (باشا فيما بعد وهو الكولونيل سيف الفرنسي الاصل) بيان حرره ابراهيم باشا نفسه بخسائره في ناڤارين البالغة ١٢٠ مليون فرنك (من عملة ذلك الزمن) . وكان في السفن الاخرى المغرقة في كل منها عدل ذلك المبلغ

وجعل احمد يبسط امام راؤل دي رامون تصميماً للمعركة ويشير الى الموضع الذي كانت فيه سفينة ابراهيم باشا الاميرالية (هنا مكان العشرين ومائة مليون فرنك ذهب) ثم انصرف لوجهه من حيث أتى وما يزه من بعدها احد) اه

***

والمعقول ان تلك الشركة او الشركات التي تبحث عن كنوز ناڤارين انما تبحث عن كنوزها الخشبية . فقد كان من تلك السفن سفن مبنية من خشب البلوط وغيره مما يستحيل الى نوع صلب شديد جداً . وهو مرغوب فيه لصنع الاثاث الفاخر وفي اعمال اخرى تستلزم ذلك النوع من الخشب الذي لبث اكثر من قرن من الزمان — في الماء المالح . ويقال أن مقدار ذلك الخشب الثمين الصيق لا يقل عن عشرين الف متر مكعب ويقال ان احد الصناع الانجليز عرض على الشركة ابتياع كل ما تستخرجه من ذلك الخشب . اما بقايا المدافع التي تزن من الفين الى اربعة آلاف طن وغير ذلك من اشياء فلسنا ندري عنها شيئاً ولا عن قيمتها ولكن يسأل عن ذلك الخبراء في المعادن والكيمياء